الفصل الثالث

المدن الثلاث

مدينة المال · مدينة العلم · مدينة الدين

وفي صباح اليوم الثاني استعدّ حليم ورفيقه صادق للدخول الى المدن الثلاث · فنهض حليم الى ثيابه يصلحها بتأنق خلافاً للعادة · فنظر اليه صديقه وابتسم · فعبس حليم قليلاً وقال له · يظهر ان صحبتك ستكون ثقيلة قليلاً بعد الآن · فاجابه رفيقه : قل ما تشاء في ذمي ولومي ودعني ارى فيك ما لم اره قبل الآن وهو اهتمامك بظاهرك · فقال حليم وقد رام تغيير الحديث : بأي مدينة نبتدئ · فابتسم رفيقه واجاب : هل من حاجة للسؤال فاننا سنبدأ بمدينة المال · ففهم حليم حينئذ انه انتقل من الرمضاء الى النار فاجابه ضاحكاً ومتورداً خجلاً : حقاً انك لا تستطيع ترك المزاح

وما طلعت الشمس في ذلك النهار تبعث الى الخليقة حرارتها المحيية ونورها المنعش حتى خرج حليم وصادق من القرية وقصدا المدن الثلاث · فوجدا في الطريق الزراع خارجين الى حقولهم وبساتينهم والرعاة يسوقون مواشيهم الى مراعيها الخصيبة وفي مقدمتها ومؤخرتها الكلاب لحراستها وهم سائرون وراءها في ايديهم قصب رخيم الصوت ينفخون به نفخاً يذكر السامع نفخ مزمار الرعاة في جبال لبنان واوديته او غناء الرعاة في عصر الاله ابولون لما نزل الى الارض وجعل نفسه راعياً وعلّم الرعاة اناشيد الآلهة · ثم سارا بضع خطى فوجدا اعمى يستعطي جالساً تحت سياج بستان على الطريق ووراء السياج في داخل البستان رجل في يده كيس كبير يملأه من الثمار والقلق بادٍ على وجهه مما يدل على انه يسرق تلك الاثمار · ثم بعد برهة شاهدا صياداً يطارد الطيور **ليصطادها** رغبة في لحمها ويترك بعد ذلك صغارها تنتظرها في اعشاشها حتى تموت برداً **وجوعاً** · وبعيداً في رأس شجرة منفردة صبي لا يتجاوز عمره عشر سنوات ينصب قضبان دبق **للطيور** ليمسكها بها · وقريباً من هذه الشجرة رجلان كل منهما آخذ بخناق رفيقه وهما **يشاتمان** ويتضاربان **بحدة** وجنون كانهما كلبان يقتتلان على عظمة · وفي الجانب الآخر وراء جذع شجرة فتى يرافق فتاة لا هي اخته ولا هي نسيبته ··

فلما شاهد حليم هذه المشاهد قال في نفسه باسماً : نحن في وادٍ والعصر الذهبي في وادٍ . فان هذه المصائب والقبائح تدل على اننا قرب مدن كالمدن المألوفة الاعتيادية

وبعد المسير نحو ساعة وصل الصديقان الى مدينة المال . فدخلا اليها بلهفة وشوق ليروا داخلها

وكانت هذه المدينة اكبر المدن الثلاث واوسعها . وكانت ممتازة عن المدينتين الاخريين بقصورها الشاهقة ودورها الباذخة وجنائنها المحيطة بمنازلها . فلما اخذ حليم ورفيقه يجولان في اسواقها وشوارعها لم يكونا يسمعان الا نداء الباعة واصوات التجار ورنين المال يُدفع او يُقبض ودوي اصوات البضائع تُحمل او تُنزل . ونظر حليم الى اهلها نظر منتقد فرآهم باجسام سمينة وعيون هائمة لا تستقر في مكان لافتها النشاط والحدّة والتفتيش وثياب نظيفة مرتبة تدلُّ على سعتهم . فخيل له انه بين قوم سعداء بعلمهم اقوياء بنشاطهم وجدّهم . لكنه كان من الذين لا يكتفون بظواهر الاشياء للحكم عليها حكماً سديداً . فقال في نفسه سنرى النتيجة بعد زيارة المدينتين الاخريين

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً كان يفتش بعينيه كثيراً عن فتاته لعله يلحها في نافذة مفتوحة او شرفة او حديقة . ولكن تعبه ذهب بلا جدوى . فانه كان يرى في النوافذ والشرفات والحدائق والطرق كثيرات من الحسان وكلهن كأنهن اقمار فوق اغصان بان . الاّ انه لم يقف على اثر لحسنائه . فكان كلما رأى حسناء وظنها اياها ثم ظهرت له خيبة ظنه يردد قول الشاعر

أليس عجيباً ان نكون ببلدةٍ كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلّمُ

وبعد ان جال حليم وصديقه في مدينة المال ساعتين خرجا منها الى مدينة العلم . فمرّا في طريقهما اليها بالحديقة العظيمة الواقعة بين هذه المدن الثلاث وهي ملتقى اهلها ومجمعهم ومتنزههم . فشاهد فيها جميل ورفيقه رهباناً وقسساً وشيوخاً وائمة ورجالاً وشباناً يحملون بايديهم كتباً وصحفاً وهم تارة يقرأون فيها وطوراً يتأملون وآونة يتذاكرون . فقال حليم لرفيقه هذه طلائع مدينتي العلم والدين . ثم مرّا قاصدين مدينة العلم دون ان ينتبه اليهما المقيمون في الحديقة

ولما وصل جميل ورفيقه الى مدينة العلم وجدا السكون والهدوء مخيمين عليها حتى انك لتسمع حين مرورك في الشوارع طنين الذباب في طيرانها . وكانت منازلها صغيرة حقيرة وشوارعها ضيقة . فارتاحت نفس جميل لما وجده من الهدوء فيها وقال : اين نحن من جلبة

تلك المدينة . غير ان البياض اذا اشتدّ صار برصاً . ولذلك لم يوغل جميل في المدينة حتى صار ذلك الهدوء التام ثقيلاً على نفسه . فانه لم يكن يسمع حركة ولا يرى شخصاً في الشارع ولا يلمح يداً ولا وجهاً في النافذة . فكان كانه في مقبرة او مدينة اموات لا احياء . الا انه كان احياناً في مروره ببعض المنازل يرى شاباً مستلقياً على سريره وكتابه في يده او رجلاً يروح ويجيء في غرفته وهو يفكر ويتأمل كأنه متجرّد عن هذا العالم . او قارئاً كتابه في يده ولكن فكره يسبح بعيداً في الفضاء الابدي

ولو لم يكن حليم ممن الف هذه الحالات واحبها لداخلته خشية منها وعراه نفور عنها . لان هذا الهدوء هدوء الاموات وذلك الانقباض البادي في وجوه النفر الذي رآه لما يبعث في النفس شعوراً رهيباً لمعرفتها ان ما يقع في ذلك الحين في وسط ذلك الهدوء الشديد مع ذلك الانقباض الاليم يجب ان يكون امراً رهيباً خطيراً تقف عنده النفوس رهبة واجلالاً . والنفس غير مخطئة في شعورها هذا لان ذلك الامر هو عبارة عن عراك ونضال بين الارض والسماء . والمعلوم والمجهول . والمادة والروح . والمحدود وما لا حد له . ذلك ان الانسان الترابي القاصر الضعيف يطلب الوصول بفكره الى الذي لا يصل اليه فكر والعقل المحدود يروم الاستيلاء على العقل الذي لا حدّ له

وبعد ساعتين خرج حليم ورفيقه من مدينة العلم وقصدا مدينة الدين . وكان حليم يمشي وفكره مشغول للعواطف التي قامت في نفسه حين مروره في مدينة العلم . فهناك تجدّدت هواجسه كلها وبلغ اضطرابه معظمه . هناك كان ينتظر ان يرى العلم ضاحكاً باشاً لانه وجد ضالته فاذا به يراه كما عهده منقبضاً مظلماً يطلب ويفتش عبثاً . فانقبض صدر حليم ونسي في هذه الدقيقة حسناءه نسياناً حقيقياً . ومن هنا نقدر ان نستدل على اخلاق هذا الشاب استدلالاً مهماً وتعرف السبب الذي جاء من اجله الى هذه البلاد . فان الناس يضعون عادة حبهم فوق كل امر . وقد وضعه الملوك مرات كثيرة فوق تيجانهم وعروشهم . اما حليم فلم يكن يعرف احبّ اليه من ان يعرف (١)

ولكن لم يلبث حليم ان دنا من مدينة الدين . وكان يسير اليها وهو مطرق مفكر بكل ما في فكره من القوة . ولكنه ما قرب من باب المدينة حتى سمع اصواتاً شقّت الفضاء واناساً بانغام رخيمة يصيحون من اعالي المآذن ـ الله اكبر الله اكبر . لا اله الا الله . فالتفت حليم بغتة وقال هل وصلنا ؟ ثم سرّح بصره في المدينة التي امامه . وكان حينئذ دخول

(١) في الحديث « لا يكمل ايمان امرئ حتى لا يعرف احبّ اليه من ان يعرف »

الظهر والمؤذنون يدعون في المآذن الى الصلاة . فلبث جميل يتأمل فيهم من بعيد بلذة لا توصف وهو يتبع كل حركة من حركاتهم . وما كاد ينتصف الاذان حتى علت اصوات الاجراس ايضاً من قبب الكنائس . فامتزجت اصوات الاذان باصوات الاجراس تذكّر البشر في الارض بالخالق جلّ جلاله وتنبههم الى واجباتهم وتنذرهم بانهم ضيوف في هذا العالم . اما رفيق حليم فانه ضحك وقال : في بلادنا تستمرّ الصلاة الى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر في يوم الاحد اما في هذه البلاد فالظاهر انها تستمرّ الى الظهر . غير ان حليماً لم تكن نفسه مستعدّة للضحك في تلك الساعة لانها كانت تفكر في موضوع ارفع واسمى . فسرّح نظره في مدينة الدين بين اصوات المؤذنين الشجية ونغمات الاجراس الرخيمة التي تناجي السماء فراقهُ جمال هذه المدينة بجوامعها النحيفة الجميلة ومآذنها الانيقة وكنائسها وقبابها المبنية احسن بناء . وصار يقول في نفسه : هذه مدينة السلام لكثيرين من الناس . هنا مستقرّ السعادة والراحة للملايين من البشر . هنا وطن الاخاء والحب والحرية والسواء . هنا مدفن احقاد الانسانية ومصائبها ومتاعبها وصغائرها لو كانت تعلم

ولما دخل حليم الى مدينة الدين استغرب ما رآه فيها من آثار الثروة والنعمة والغنى . فانّ جوامعها وكنائسها — وكلها كانت كنائس وجوامع — كانت مبنية باتقان وزخرف يستوقف النظر . وكانت شوارعها فسيحة فيها الناس يروحون ويجيئون الى الجوامع والكنائس ومنها . وهم بين رجال ونساء بانفر زينة

فبعد ان جال جميل ورفيقه ساعة في المدينة وشاهدا ما فيها قال لرفيقه : لقد شاهدتُ الآن ما اردت مشاهدته من هذه المدن فهلمّ بنا الآن نذهب الى الحديقة التي هي مجمع اهلها ومتنزههم فقد بقي علينا الوقوف على دخائلها بعد ان وقفنا على ظواهرها

فقال صديقه ولكن الحديقة تكون خالية في وقت الظهر فاجل الى المساء دخولنا اليها وهلمّ بنا الآن الى فندق لنتغدى ونستريح فقد تعبنا